السينودس من أجل لبنان.
الواقع، والمهام... والحدث

الأب سليم دكّاش اليسوعيّ*

عندما ينكبّ أصحاب التفكير والنظر على قضيّة لا تزال في حيّز الاختبار أو التجربة الإنسانيّة، فإنّهم يأخذون بعين الاعتبار أنّ في الاختبار الإنسانيّ عالَمين أو نظامَين: فالأوّل هو مجموع الأبعاد أو العناصر الأساسيّة التي تؤلّف بنية الوجود الإنسانيّ، وهي الإدراك والعاطفيّة والعقلانيّة والزمانيّة والمكانيّة والعلاقة القائمة بين ذاتٍ وأخرى. إلاّ أنّ هذا المجال الأوّل، المؤلّف من الأبعاد الكيانيّة المتعدّدة، ليس هو إلاّ مجال طاقات أو إمكانيّات. فالعلاقة القائمة بين ذاتٍ وأخرى هي بعدٌ أساسيّ وبنية متأصّلة في الوجود الإنسانيّ، إلاّ أنّها تُعدّ إمكانيّة من الإمكانيّات التي جُبل عليها الشخص الإنسانيّ، أي إمكانيّة التعاطي في العمق بين شخصٍ وآخر وإمكانيّة الاتّصال الاجتماعيّ بين مجموعة وأخرى.

هذا البعد الأوّل هو أساسيّ. إلاّ أنّ الأهمّ هو ما يحدث بالفعل. ولذلك فإنّ ما ينتج عن مجموعة هذه الإمكانيّات والطاقات، ضمن التاريخ والمتغيّرات، هو ما يطبع الوجود الإنسانيّ ويكوّن الاختبار ويُضفي عليه المعنى. فما يميّز هذا الاختبار هو الحدث، وهذا ما ينتظره الإنسان ويرجوه. ويجعل الحدث هو البعد أو النظام الثاني الذي يميّز الاختبار الإنسانيّ. فالحدث يضفي على الاختبار معناه، إلاّ أنّه يكون أيضًا قاطعًا، فلا يمكن لأحد أن يمحو ما فصّله وكتبه وأنجزه، حتّى ولو أُزيلت بعض انعكاساته وآثاره. ويؤخذ أيضًا بعين الاعتبار أنّ بعض الأحداث هي فاصلة وقاطعة أكثر من غيرها، أي أنّها تترك أثرها في الوجود عينه وفي الاختبار الإنسانيّ والتاريخ الجماعيّ والفرديّ، ويصبح ذلك الحدث وكأنّه المصدر، لا المرجع فقط، ويصبح كلُّ متغيّرٍ مرتبطًا به، لأنّه الحدث الثابت الذي يغذّي الحياة ويمدُّها بعافيته واستمراريّته. وهذا الحدث هو أيضًا ذلك الشامل الذي يعطي الإمكانيّات والطاقات تلك الأرضيّة

* رئيس تحرير «المشرق»

والتربة التي هي بحاجة إليها. إنّه الذكرى التي تكوّن ذاتيّة الإنسان والمجموعة التي ينتمي إليها.

الدعوة إلى السينودس، نقطة الانطلاق إلى الحدث

وليس الكلام عن الحدث والتفكير النظريّ بهذا البعد الأساسيّ وبهذا المفهوم لمجرّد الكلام، بل لأنّه المفهوم العمليّ الذي لا بدّ أن يتمحور حوله كلّ حديث وخطاب ينطلق من الدعوة إلى انعقاد الجمعيّة الخاصّة للسينودس من أجل لبنان، تلك الدعوة التي أطلقها قداسة البابا يوحنّا بولس الثاني في الثاني عشر من شهر حزيران ١٩٩١، وكذلك كلّ عمل كنسيّ، أكان روحيًّا أم تنظيميًّا. ففي هذه المرحلة من تاريخ المسيحيّة - والكاثوليكيّة خاصّة - في لبنان والشرق، لا ننتظر أو لا نريد مجموعة من الأفكار والقرارات والتوصيات والتمنّيات، بل ما نريده ونبتغيه هنا والآن هو ذلك الحدث الجديد الذي ينبع، بفعل الاستمراريّة، استمراريّة النعمة وقوّتها، من حدث الإنجيل، إنجيل يسوع المسيح. ولماذا الحدث؟ وهل المسيحيّة في لبنان بحاجة إلى حدث يطبع وجودها بما يجدّده ويتجه؟ وما هو الواقع الذي يفرض هذا الحدث الذي ينعكس إيجابًا على المصير؟ وكيف نستنطق هذا الواقع؟ وهل الدعوة التي أطلقها البابا يوحنّا بولس الثاني إلى انعقاد سينودس الأساقفة الكاثوليك في العالم من أجل لبنان هي الحدث؟ وهل انعقاد الجلسة الخاصّة بهذا السينودس هو هذا الحدث؟ وما هي الشروط والعناصر التي لا بدّ أن تتأمّن للوصول إلى الغاية والمرتجى أم أنّ الواقع، بما هو عليه، واقع الكنيسة والمسيحيّين، يمنع تحقيق المراد والمطلوب؟ إنّها أسئلة مصيريّة تُطرَح على واقع الكنيسة في ظروف أقلُّ ما يقال فيها انّها مريرة وقاسية بعد سنوات من التدمير والتهجير والهجرة والانحسار الجغرافيّ والوطنيّ، ووراء ذلك لائحة طويلة من الأسباب والدوافع الذاتيّة والخارجيّة، منها واقع المسيحيّين نفسه الذي لا يخلو من التشرذم والانقسام والاتّهام المتبادل على جميع المستويات، أكانت كنسيّة أم سياسيّة أم اجتماعيّة، ومرجعه هنا، حتى ولو أراد بعضهم أن يغطّيه بخطاب مموّه مزيّف، هو التخلّف الروحيّ والانكسار الحضاريّ والاغتراب عن الذات ومشكلة الانتماء وإنعدام الرؤية الصحيحة القائمة على الأسس الإنجيليّة والفكر الإبداعيّ.

وعندما نتكلّم بقوّة [illegible] عن ضرورة حدث، والحدث ليس سابقة في تاريخ مسيحيّة لبنان والشرق[1]، فإنّما نقول إنّ في الأمر أزمة قاسية، أزمة المسيحيّة بوجهيها الروحيّ والسياسيّ. ولذلك فإنّ المراد هو أن يحدث ما يحرّر حقيقة من الخوف على الذات ومن استمرار التردّي والهلاك. وبمقدار ما أنّ الأزمة شاقّة وبالغة التعقيد، فإنّ الحدث المنتظر هو من متطلّبات الواقع نفسه، وربّما كان صعبًا ومستحيل التحقيق، كما يردّد بعضهم، مشيرًا إلى شدّة الأزمة. واللافت للنظر أن قداسة البابا يوحنّا بولس الثاني يعبّر بوجه غير مباشر عن مظهر أساسيّ من مظاهر هذه الأزمة، وهو الإحباط وانعدام الثقة، فيدعو كلّ واحد إلى «أن يحافظ على الرجاء ويحتفظ بالثقة»[2].

إرتباط الدعوة بالأزمة

إنّ الدعوة إلى انعقاد الجلسة الخاصّة بسينودس الأساقفة الكاثوليك العالميّ من أجل لبنان مرتبطة الارتباط الوثيق بأزمة المسيحيّة الشرقيّة، وهي تعكس في الواقع أبعادها الحقيقيّة، وإن لم تتحدّث عنها مباشرةً. وهذه الأبعاد هي الخلفيّة التي رافقت المبادرة البابويّة ولا تزال ترافقها:

مأساة الهجرة والتخلّي عن الأرض

١ ـ إنّ الحرب اللبنانيّة تركت آثارًا مأساويّة في وضع المسيحيّة بكنائسها مجتمعة، ومن هذه الآثار هجرة المسيحيّين إلى أوروبّا وأستراليا والولايات المتّحدة وكندا وغيرها من البلدان، حتّى إنّ هذه الهجرة (أو التهجير) صارت ظاهرة السبعينات والثمانينات وبداية التسعينات. إنّها ظاهرة تطاول لبنان وبلدان الشرق الأوسط، وهي ظاهرة هجرة جماعيّة، بحيث إن عائلات بكاملها وقرىً بكاملها حلّت مشكلة علاقتها بالحرب والانتماء والمأساة بمأساة أخرى هي الاغتراب والغربة. وهذا النزيف ربّما يجعل من أرض المسيحيّة الشرقيّة متحفًا أو مجموعة متاحف مسيحيّة تصلح بالأكثر، ومع كرّ الأيّام، أن تكون موضوع

(١) على سبيل المثال، للمجمع اللبنانيّ سنة ١٧٣٦.
(٢) من الرسالة المتلفزة في ١١ تمّوز ١٩٩١.

دراسة لعلماء الإتنولوجيا وتاريخ الشعوب القديمة. يقول الأستاذ عثمان تويني في مقال نشرته جريدة «لوريان ـ لوجور»[1]، متحدِّثًا عن سياسة الممكن: «قل أيّ شيء آخر، من الضروريّ البقاء بدل الرحيل. من الضروريّ التشبُّث بالأرض، بحياة الأمّة، ومن الواجب توظيف الإنسان والثروات في الخلق والامتياز». أيأتي هذا الخطاب متأخِّرًا؟ لولا الرجاء في المسيح، لكان الجواب سلبيًا.

أين نحن من مفهوم «الكنيسة»؟

٢ ـ وثمّة وجه آخر من وجوه الأزمة له أهمّيّته وأثره في وضع المسيحيّة الحاليّ: إنّ رسالة الكنيسة، النابعة من الإنجيل على جميع المستويات، حجبتها عن الأنظار المظاهر والخصائص الطائفيّة وما يعتبها أو ما يرافقها من سلوك سياسيّ وسجالات وخطابات وممارسات بعيدة في الغالب عن روح الإنجيل وتعاليم مختلف الكنائس. في هذا المجال تقلّصت الروحانيّة الشرقيّة النابعة من الإنجيل، بمميِّزاتها وخصوصيّاتها التراثيّة المختلفة، وقوي العنصر الطائفيّ السياسيّ والمجتمعيّ، فأوشكت الكنيسة أن تصبح تابعةً، بدل أن تكون هي الأقوى في بلاغها وتأصّلها في مختلف البُنى التي تؤلِّف الوجود والتاريخ. وأمام هذا الواقع الكنسيّ الثابت، يدعو أسقف روما في ندائه إلى ما يمكن أن نلخِّصه في العبارة التالية: التعبئة الروحيّة، أو العودة إلى الذات أو التجدُّد في المسيح ورسالته من خلال تغيير باطنيّ جذريّ يطاول، لا الأشخاص فقط، بل خاصّةً تلك البنى والمؤسّسات والجماعات التي تغلب عليها وعلى تصرّفاتها الروح الإقطاعيّة، وقد ظهر ذلك جليًّا في العنف والتدمير الذي طاول المسيحيّين في جوّ شُحِنَ أحيانًا بالبغض والكراهية المتبادلة. إنّ الأزمة تكمن في أنّ المسيحيّ جعل من ارتباطه الطائفيّ مقياسًا ومرجعًا، وفصَّل دينه على قياس مجتمعه المجزَّأ، فصارت رؤيته للآخر رؤيةً نافية للآخر ـ حتّى بين المسيحيّين ـ بدل أن تكون في جوهرها رؤية قبول له، على علاّته. فمهمّة الراعي المسيحيّ هي المحافظة والسهر على مصداقيّة الكنيسة، وإلاّ ذابت هذه المصداقيّة بفعل

(١) في ٤ آيار ١٩٩١.

المصالح الضيّقة والصغيرة التي لها الطابع الطائفيّ وبفعل الممارسات السياسيّة التي تعتمد على الانتماء الطائفيّ الصرف. إنّ التعبئة الروحيّة تعني الانتقال شيئًا فشيئًا من ذهنيّة الطائفة إلى مستوى الكنيسة والعودة إلى قِيَم الإنجيل وهي قِيَم تتسم بالطابع الشموليّ: من الرغبة في العدالة، لمناهضة الظلم والأنانيّة، إلى مجابهة حبّ المظاهر والشكليّات والخطاب الذي يزيّف الواقع، بقول الحقيقة والمجاهرة بكلمة الحقّ، إلى نبذ العنف وإبادة الآخر، بزرع روح التوبة والمصالحة، إلى إعلاء مفهوم الكنيسة ووحدتها في بُنى حيّة تكرّس الانسجام في الروح.

٣ ـ إنّ البابا يوحنّا بولس الثاني يتحدّث في ندائه إلى اللبنانيّين[1] عن «الكنائس الكاثوليكيّة» وعن «كنائس الشرق القديمة» وهو بذلك يُشير إلى واقع المسيحيّة اللبنانيّة، المؤلّف من خصوصيّات تاريخها وجغرافيّتها وهيكليّاتها النظاميّة وليتورجياتها وثقافتها، ممّا يكوّن ثروة عميقة الأصول. إلاّ أنّه، أمام مفهوم «الكنيسة»، الذي يستخدمه البابا يوحنّا بولس الثاني، وهو مفهوم ديناميّ أصيل، لا بدّ من طرح السؤال التالي: هل ثمّة، هنا واليوم، جماعات مسيحيّة حقيقيّة شاهدة في الكنائس، لكي نستطيع أن نتكلّم عن «كنائس كاثوليكيّة» أو «كنائس شرقيّة قديمة»؟ الجواب هو أنّ الغالبيّة العظمى من المسيحيّين اللبنانيّين لم تستطع أن تؤلّف تلك الجماعات المسيحيّة، حيث إنّ مفهوم «الشركة» (Koinonia)؛ في مختلف كنائسنا، ضائع حائر، لا يجد له، في عمق الحياة الكنسيّة وممارساتها، الأرضيّة الصلبة ليستقرّ ويسكن فيها. فـ «الشركة» أُصيبت مرّتين: عندما تغلّبت الروح الطائفيّة ـ بما لها من بعد سياسيّ إقطاعيّ عثمانيّ ـ على الروح الكنسيّة وعلى قِيَم الإنجيل، وعندما حصل التباعد والمجافاة، واستقرّ روح الانتقاد المتبادل وانعدام الثقة بين بعض الرعاة والمؤمنين، وبين مؤمنٍ وآخر... والواقع أنّ انعدام الثقة هذا بين الرعاة والمؤمنين لم يبدأ مع الحرب اللبنانيّة أو في السنتين ١٩٨٩ ـ ١٩٩٠، بل هو بدأ مع نهاية المجمع الفاتيكانيّ الثاني الذي دعا إلى التجدّد على جميع مستويات الحياة الكنسيّة، في حين أنّ عددًا من المسؤولين الكنسيّين فضّلوا الانتظار

(١) تاريخ ١٩٩١/٧/١١.

والترقّب والتأجيل، لأنّ قرارات المجمع تصلح، في نظرهم، لكنيسة الغرب فقط.

قضيّة السلطة في الكنيسة والروح المجمعيّة

فمن القضايا الشائكة الإنسانيّة في حياة الكنيسة وفي عمق الأزمة، قضيّة السلطة والمشاركة، مع أنّها قضيّة تتجاوز الإطار المحلّيّ إلى الإطار العالميّ، ولها تشعّباتها وأبعادها. فالسلطة في الكنيسة وظيفتها الخدمة، خدمة الجميع، خدمة المصالحة والوحدة والشركة، وهي تتركّز، كما هو متعارف عليه وبحسب اللاهوت، في يد السلطة التعليميّة التوجيهيّة النبويّة، وهي مكوّنة، في الكنيسة الكاثوليكيّة، من البابا والبطاركة والأساقفة. فالمجمع الفاتيكانيّ الثاني سعى من ناحية إلى تعزيز الروح المجمعيّة (collégialité) بين البابا والأساقفة وبين الأساقفة أنفسهم، وذلك لردع التفرّد وتعزيز العمل الجماعيّ. وأراد المجمع من ناحية أخرى ـ وبعده سينودُس الأساقفة سنة ١٩٨٧ ـ إلى إعلاء شأن العلمانيّ، ووظيفته ودوره في حياة الكنيسة، استنادًا إلى اشتراكه في الينبوع الواحد، الكهنوت المشترك. يقول المجمع في «الدستور العقائديّ في الكنيسة»: «إنّ المسيح النبيّ العظيم، الذي أعلن ملكوت الآب بشهادة حياته وقوّة كلمته، يقوم بوظيفته النبويّة حتّى الظهور الكامل لمجده، لا بالسلطة التي تعلّم باسمه وسلطانه فحسب، بل بالعلمانيّين أيضًا، وقد أقامهم شهودًا وسلّحهم بذوق الإيمان ونعمة الكلمة (راجع أعمال الرسل ٢/١٧ ـ ١٨ورؤيا ١٩/١٠)، حتّى تتلألأ قوّة الإنجيل من خلال حياتهم اليوميّة والعائليّة والاجتماعيّة»[1]. ويتحدّث الدستور عينه عن «الوظيفة النفيسة» وعن «واجب العلمانيّين... في تبشير العالم»، ويدعوهم أيضًا إلى التعمّق المتزايد والسريع «في معرفة الحقيقة الموحاة» وإلى المزيد من النضال في سبيل العدالة وبناء عالمٍ محرّرٍ من الظلم. وفي مجال العلاقة بالسلطة (دستور عقائديّ، رقم ٣٧)، يدعو المجمع الفاتيكانيّ الثاني العلمانيّين إلى اعتناق «ما يقرّه الرعاة المكرّسون، ممثّلو المسيح، بصفتهم معلّمين وذوي السلطة في الكنيسة». إلاّ أنّه يدعو العلمانيّين إلى التكلّم

(١) دستور عقائديّ في الكنيسة، العدد ٣٥.

«بصراحة وشجاعة»، ويدعو الرعاة «إلى أن يتقبلوا كرامة العلمانيّين ومسؤوليّتهم في الكنيسة ويشجّعوها»، لا أن يحاربوها، «فيأخذوا عن رضًى بآرائهم الفطنة، ويكلّفوهم بثقة بمهمّات في خدمة الكنيسة، تاركين لهم حرّيّة العمل ومجاله...». فما يدعو إليه المجمع هو أن يتحمّل العلمانيّون، هم أيضًا، همّ الكنيسة ومسؤوليّاتها في مجالات مختلفة، مركزًا على أن مصداقيّة عمل الكنيسة، وفاعليّة الرسالة، تتحقّقان في المشاركة والثقة المتبادلة. والواضح أن مفتاح نجاح الكنيسة في تتميم رسالتها هو في يد السلطة التعليميّة ويد العلمانيّين معًا، وهذا ما أشار إليه البابا يوحنّا بولس الثاني، عندما ذكّر، في ختام سينودس ١٩٨٨ عن العلمانيّين، بالوظيفة الثلاثيّة التي تقوم عليها رسالة العلمانيّين، وهي الوظيفة الملوكيّة والكهنوتيّة والنبويّة: «ركّز السينودس على المشاركة كإطار ضروريّ لتحديد دور العلمانيين في الكنيسة من أجل خلاص العالم[1]».

فأين نحن اليوم من موضوع الروح المجمعيّة، وقد كانت لقرون طويلة من ميزات الشرق وكنائس الشرق؟ وأين نحن اليوم من دور العلمانيّين في المشاركة، المشاركة الحقيقيّة في الإعداد للقرارات، بحيث يحملون إلى الجماعة الكنسيّة آراءهم ومشاكلهم ونظرتهم الخاصّة في شتّى المجالات، ومنهم اليوم العلمانيّ الملتزم المثقّف الواعي؟

إنّ أزمة المشاركة في حياة الكنيسة ليست اليوم أحاديّة الجانب، بل هي مثقلة بشتّى الوجوه. فالسلطة الكنسيّة التعليميّة التوجيهيّة مرتبطة الارتباط الوثيق بالمجتمع وأحاسيسه ورغباته، فيتّجه هذا المجتمع إلى أن يجعل من السلطة الكنسيّة إلى حدٍّ ما، قوّة اجتماعيّة سياسيّة تعبّر عن قوّته وتدافع عن حقوقه. فمع تراجع حقوق المواطنة وواجباتها وبالتالي سقوط الدولة ومؤسّساتها المتتالي، بات من الطبيعيّ أن يحمّل العلمانيّ رموز السلطة الكنسيّة ثنائيّة القيادة الدينيّة والقيادة الاجتماعيّة السياسيّة، فأصبح الراعي والأب الروحيّ للجماعة المسيحيّة ممثّلاً اجتماعيًّا ووجهًا سياسيًّا كباقي الممثّلين، يصعب عليه أن يجمع حول كلمته الأبناء الذين هم على آراء متباينة مختلفة، فيصبح الراعي فريقًا بدل

(١) خطاب البابا يوم ٢٢ كانون الأوّل ١٩٨٧.

أن يكون الجامع المصالح. فخدمة المصالحة هي من صُلب دعوته ورسالته، لا العمل السياسيّ وخاصّة كما يمارس حاليًا ومحليًّا. وإذا كان هناك من روح تسلّط أو سلطويّة في الكنيسة، كما يقول بعضهم فليس هذا إلاّ نموذجًا عن مجتمع يسوده التفرّد بالرأي والتسلّط وانعدام الوعي السياسيّ الحقيقيّ. فكلمة «كنيسة» عند عامّة المؤمنين تذكّر أوّلاً بالرؤساء الدينيّين وثانيًا بالطائفة التي ينتمون إليها وثالثًا بالرعيّة أو الكنيسة التي يرتبطون بها. وهذا الانتماء الاجتماعيّ يُترجَم بذهنيّة الأقلّيّة/الأكثريّة وفي المواجهة مع باقي الطوائف أو الجماعات المسيحيّة أو الإسلاميّة. ويقود هذا كلّه إلى نوع من «العلمنة» التقليديّة، التي تقوّيها وتغذّيها عقليّة متأثّرة بالغرب والمجتمع الاستهلاكيّ، فيصيب إذ ذاك الحياة المسيحيّة الفرديّة انفصام بين مستوى الإيمان ومستوى العلاقات الشخصيّة. والواقع أنّ الكثير من العلمانيّين المؤمنين هم في حيرة كبيرة أمام ممارسات وتصرّفات في المجتمع تتعارض وتعليم الكنيسة، مثل الإجهاض، والاستمرار، والغنى الاحتياليّ والاستغلال الظالم... وكثيرون أيضًا هم في وضع ماديّ ومعنويّ ازداد سوءًا في السنوات الأخيرة ممّا يسهّل عمل الشيّع على مختلف مشاربها ومصادرها، بالرغم من العمل الجادّ الذي تقوم به بعض القيادات الروحيّة الواعية وعدد من الحركات الرسوليّة العلمانيّة ومنظّمات الإعانة والإغاثة. إلاّ أنّ ما يلفت النظر هو الدور الهامشيّ الذي يضطلع به العلمانيّ المؤمن في حياة الكنيسة اليوم، إذ إنّ الكثير من البنى الكنسيّة الحاليّة لا تلائم العصر ولا متطلّبات المجمع الفاتيكانيّ الثاني في شأن دور العلمانيّين ورسالتهم: وغالبًا ما نسمع انتقادات من النمط الآتي: «أين البطريركيّات والأبرشيّات من المجالس المؤلّفة من الإكليريكيّين والعلمانيّين المتخصّصين، ذوي الخبرة والعلم في الشؤون الوطنيّة والكنسيّة، المنتخبين والمختارين الاختيار الصحيح؟ وإلى أيّ حدّ وبأيّ فاعليّة يساهم المؤمنون العلمانيّون في المجالس الأبرشيّة والخاصّة، لتأدية رسالة الكنيسة المحلّيّة؟ وإذا تكلّمنا، في هذا السياق، عن دور المؤمنين العلمانيّين الهامشيّ في مشاركتهم الحقيقية في الإعداد للقرار، أفلا يجب أن نلفت النظر إلى بعض الضعف في العمل المجمعيّ الدائم المستمرّ بين مسؤولي الكنائس أنفسهم، وهو عمل يقتضي، لا الاجتماع فقط والتشاور، بل التمييز في القضايا الكبيرة التي تخصّ

الكنيسة واتّخاذ القرار الصائب على مختلف الأصعدة[1]؟

العمل المجمعيّ ومجالات التجدُّد والتجديد

وفي هذا المجال، يقول المجمع الڤاتيكانيّ الثاني مشيرًا إلى أهمّيّة العمل الجماعيّ بين الأساقفة في إطار الكنائس المحلّيّة ومن ضمن دعوته إلى تطبيق التعدُّديّة ضمن الانسجام الروحيّ بين الكنائس: «في أيّامنا الراهنة بصورة خاصّة، قليلاً ما يستطيع الأساقفة القيام بمهمّاتهم بطريقة موافقة مثمرة، إذا لم يحقّقوا مع سائر الأساقفة وفاقًا يتوثّق يومًا بعد يوم، وعملاً أشدّ ارتباطًا. ولقد أعطت المجالس الأسقفيّة، التي أُقيمت في عدّة بلدان، براهين قيّمة على الخصب الرسوليّ»[2]. فالأمل معقود على أن يقوم الأساقفة الكاثوليك في لبنان «بمهمّاتهم بطريقة موافقة مثمرة» ضمن وفاقٍ «يتوثّق يومًا بعد يوم»، وأن تعطي مجالسنا الأسقفيّة البراهين على «الخصب الرسوليّ». لا شكّ أنّ العمل شاقّ، وأنّ مجالات التجديد، في ضوء الإنجيل وتعاليم الكنيسة، هي متعدِّدة، وخصوصًا مجال التنشئة، تنشئة الكهنة والعلمانيّين على حدّ سواء، ومجال تحديث البنى الكنسيّة التي لها دور كبير في المجتمع، كالتعليم والتربية والاستشفاء والإعلام والخدمات الاجتماعيّة... إنّ الكنيسة في تعدديّتها مدعوة في أيّامنا إلى الإبداع الروحيّ لكي تستطيع أن تحقّق رسالتها الخاصّة في هذه البلاد.

ليست الكنيسة مجرّد «إدارة»، بل هي شعب الله!

٤ ـ لن تستطيع الكنيسة في لبنان أن تسير في طريق الإبداع الروحيّ والتجدّد، وبالتالي أن تخرج من الأزمة، إلاّ بالتحرّر أيضًا من بعض المفاهيم الخاطئة التي نُسجت حول الكنيسة: فالكنيسة ليست مجرّد مجتمع بشريّ تنحصر اهتماماتها في تنظيم المجتمع ورفاهيّته الاقتصاديّة والماديّة، وليست المجتمع السياسيّ، يريد بعضهم أن ترسّخ وجوده في مقابل تجمّعات سياسيّة أخرى.

(١) تفرض علينا الحقيقة أن نشير هنا إلى الرسالة الخطيرة التي صدرت عن مجلس بطاركة الشرق الكاثوليك في عيد الفصح من السنة الحاليّة بعنوان الحضور المسيحيّ في الشرق شهادة ورسالة، وهي برنامج صريح جريء بثّر بالآمال.

(٢) قرار في مهمّة الأساقفة الراعويّة، رقم ٣٧.

وليست هي مجرّد «إدارة» يعود إليها بعضهم [illegible]
والزواج والدفن... وليست المؤسّسة الاجتماعيّة فقط، تتحمّل عبء حلّ المشاكل الاجتماعيّة، وليست المؤسّسة الثقافيّة فقط، التي تؤمن العلم والتعليم ونشر الثقافة. إنّ في هذا نظرة ناقصة لا ترى في الكنيسة إلاّ المظهر الخارجيّ أو الرسالة الدنيويّة، ولا ترى هويّة الكنيسة إلاّ في شؤون العالم. فأزمتنا اليوم هي، قبل أيّ أمر آخر، أزمة نظرة ونهج في التعامل والتعاطي مع الجسد الذي ننتمي إليه. إنّها أزمة انتماء، إذ إنّ الكنيسة هي مرجع روحيّ ننتمي إليه، قبل أن يكون مرجعًا دنيويًّا. فالذي يحدّد هويّة الكنيسة هو الله لا العالم، وقد شاء الله أن يجمع أبناءه في جسد واحدٍ هو شعب الله، وأن يكون هذا الجسد في خدمة العالم. ولأنّ الكنيسة تقوم على الروح، يقول البابا يوحنّا بولس الثاني عن زمن الاستعداد للسينودس «إنّه زمن مميّز بالنسبة إلى الكنائس الكاثوليكيّة في لبنان، تتساءل فيه عن ذاتها وعن أمانتها لإنجيل المسيح، وعن التزامها بأن تعيشه عمليًّا كلّ يوم»(١). فعلى الكنائس أن تتساءل عن ذاتها، عن هويّتها، عن مبدأ وجودها وعمّا يحرّك كيانها ووجودها ونشاطها من الخواطر والأفكار والآمال. والتساؤل عن الذات وعن الأمانة لإنجيل المسيح يقضي طرح بعض الأسئلة الأساسيّة ذات الطابع اللاهوتيّ: مَن هو الله الثالوث في نظرنا اليوم؟ ما هو خطابنا في سرّ المسيح؟ ما هو سرّ الخلاص في كنائسنا وكيف نعيشه؟ ما هو موقع كنائسنا اليوم في لبنان والعالم العربيّ؟ كيف نتصوّر سرّ الوحدة والتعدّديّة في الكنيسة؟ مَن هو الآخر في نظرنا ومن خلال المقاييس الإنجيليّة؟ ما هو موقع تراثنا الروحيّ، النسكيّ واللاهوتيّ الشرقيّ في حياة الكنيسة؟ ما معنى الأمانة للتراث والأصول؟ ما هي نظرتنا إلى ارتباط الإيمان بالثقافة والثقافات، انطلاقًا من اختبارنا ووجودنا؟ ما هو رجاؤنا في جوّ العنف والحقد وفي وسط مجتمع الاستهلاك؟ ما هو دور مؤسّساتنا التربويّة في الربط بين الإيمان والعالم المعاصر وتيّاراته وفلسفاته؟ كيف ننظر إلى الأخلاق وما هي كلمة الكنيسة في هذا المجال، كلمة تكون مُقنعة ومصدر حياة؟ أين نحن من الدولة؟ وما هي علاقة الدين بالدولة الديموقراطيّة؟ وهل نريد بالفعل الدولة الديموقراطيّة؟ كيف نتعامل مع القضاء والقدر والمكتوب...؟ ما مفهومنا لمقولة «الكاثوليكيّة»

(١) من الرسالة المتلفزة.

وللعلاقات مع باقي الكنائس الكاثوليكيّة؟ بأيّ روحيّة نتعامل مع الشيع ومخاطرها؟ ما مفهومنا للمصالحة والمسامحة في واقعنا الشرقيّ اللبنانيّ؟

خطاب جديد لمعالجة الأزمة

إنّ الإجابة عن هذه الأسئلة وغيرها لا تتمّ من خلال النهج المرتبط بالأزمة الحاليّة، وهو نهج نتلمّس محتواه وشكله في ثلاثة أنواع من الخطاب المسيحيّ:

أ ـ الخطاب الأخلاقيّ الوعظيّ الإنشائيّ الذي يرى السوء في كلّ مكان ولا يرى إلاّ السوء. وهو خطاب ذو نزعة تشاؤميّة لا تتلاءم وروح الإنجيل المفعم بنور الصليب وقدرة القيامة، وهو أيضًا خطاب يتوقّف عند العموميّات والشكليّات ولا يأخذ الواقع بكلّيّته، وفيه الكثير من أفعال الأمر والواجب، في وقت ينزع فيه الإنسان، إنسان اليوم، إلى التحرُّر من كلّ فوقيّة وشريعة مفروضة. إنّه الخطاب الذي يفضّل الحرفيّة ويعزّز مواقع الشكليّات على حساب الروح والحياة.

ب ـ الخطاب الأصوليّ الجدليّ الدفاعيّ الهجوميّ الذي يرى دومًا في الآخر سبب التخلُّف والتراجع والهزيمة وفقدان الروح. إنّه الخطاب الذي يرى العلاقة أو العلاقات بين المسيحيّين وبين كنيسة وأخرى ثمرة تنافس أو تنازع أو اقتناص، ولا يستطيع أن يقرأ الواقع، الآن وهنا، إلاّ من خلال جروح التاريخ والمعادلات السياسيّة الاجتماعيّة التي أفرزتها. هذا الخطاب المغلّف أحيانًا بالصوفيّة وأحيانًا أخرى بالتعابير الشموليّة التجريديّة وأحيانًا أخرى بالنقد المجرّح لا يستطيع هو أيضًا أن يجيب عن الأسئلة الأساسيّة التي تطرحها أزمتنا، لأنّه خطاب فيه ما يكفي من السلبيّة، وهو متواجد بين جماعة وأخرى.

ج ـ والخطاب الآخر هو ذلك الخطاب العاطفيّ الذي يسهّل الأمور وتعقيداتها ويريد أن يكون الخطاب الموحِّد الجامع المصالح، دون أن يأخذ بعين الاعتبار حالة الواقع الذي نحيا فيه، فلا يحرِّر الواقع ولا يصل إلى مستوى الحقيقة، وتبقى الأمور كما هي.

خمس محطّات في طريق الإعداد للسينودس

إنّ عالميّة المؤمنين، وخصوصًا أولئك الذين يعانون ويتألّمون ممّا وصلت إليه كنائسهم، هم بانتظار خطاب جديد يرتكز على أصول إيمانها وانتمائها العميقة، بفصل التأمّل في الوحي الإنجيليّ وإشغال الفكر في القضايا المطروحة على بساط البحث. إنّ رسالة البابا يوحنّا بولس الثاني إلى اللبنانيّين تدعو، في هذا المجال، إلى اعتماد النهج التالي، المؤلّف من خمس محطّات إعدادًا للسينودس المقدّس من أجل لبنان، طريقًا «من أجل إعادة بناء مجتمع جديد، بنبل وحرّيّة، جدير بدعوة لبنان التاريخيّة»:

المحطّة الأولى: الحفاظ على الرجاء والاحتفاظ بالثقة: هذه النقطة الأولى هي أساسيّة، بمقدار ما يعيش الكثيرون هذه المرحلة في جوّ من الإحباط، أو أنّ بعضهم فقد ثقته بالكنيسة ولا سيّما بالمسؤولين فيها، أو أنّ بعضهم الآخر يعيش على الهامش، منتظرًا السفر أو الرحيل. فالحفاظ على الرجاء هو موقف أساسيّ إيجابيّ، لأنّ اليأس هو الذي يكبّل القلب والعقل معًا. فالوقت هو وقت استجماع «كلّ الطاقات وكلّ الإرادات الخيّرة» من أجل عمل يبني بعد سنوات من الهدم ومن أجل كنائس حيّة تنسجم مع رسالة الإنجيل. ولذلك فإنّ الإعداد للسينودس لا تقوم به، في نظر البابا، مجموعة معيّنة أو سلطة معيّنة، بل إنّ شعب الله بكلّيّته مدعو للقيام بالمهمّة.

المحطّة الثانية: التوبة وتنقية القلب وتطهيره: لقد توجّه البابا يوحنّا بولس الثاني بهذا الكلام إلى مجموعة من المؤمنين الشرقيّين. فتطهير القلب هو محطّة أساسيّة من محطّات الإنجيل والروحانيّة الشرقيّة، وذلك جليّ في كتابات الآباء السريان وغيرهم. فالتوبة الحقيقيّة لا تتمّ من دون تطهير القلب من الأفكار السيّئة، لأنّ النور والظلمة لا يتآخيان في المكان الواحد، ولأنّ القلب هو، في المفهوم الكتابيّ، مركز الحياة العقليّة والأخلاقيّة. فعندما يتطهّر القلب، يتزكّى الإنسان بكامله: على مستوى علاقاته وعمله وأفكاره وعقله وعواطفه ونفسيّته وطبعه ويشرق منه نور الحياة. ويكرّر البابا الدعوة إلى تطهير القلب كإسهام ثمين «يمكن كلّ لبنانيّ أن يقدّمه إلى مواطنيه ووطنه». فالدعوة هنا

ليست موجّهة إلى فرد أو أفراد أو مجموعة معيّنة، بل إلى كلّ لبنانيّ يسمع النداء. والقلب هنا هو المركز المشترك للجسد الاجتماعيّ السياسيّ الذي يؤلّفه المجتمع اللبنانيّ بكلّ فئاته.

إعادة قراءة تاريخنا الروحيّ الكنسيّ الاجتماعيّ والسياسيّ

المحطّة الثالثة: فحص الضمير، إعادة قراءة تاريخنا الروحيّ، الاجتماعيّ والسياسيّ: إنّ هذا تلخّصه عبارة «عمل طويل من التفكير والصلاة» حيث يتمّ التساؤل حول الهويّة وقضيّة الهويّة مطروحة علينا اليوم على نحوٍ واضح وحول الأمانة لإنجيل المسيح، وحول الالتزام في عيشه عمليًّا كلّ يوم. فهذه المحطّة تدعو إلى اكتشاف جذور الإيمان العميقة والتحرّر من كلّ ما يعيق العيش بانسجامٍ وصدقٍ رسالةَ المسيح. وهي أيضًا دعوة إلى إعادة قراءة الواقع في ضوء المقاييس الإنجيليّة والكنسيّة، وخصوصًا ما يُعلّمه المجمع الفاتيكانيّ الثاني. فالعودة الحقيقيّة إلى الإنجيل لا تتحقّق إلاّ من خلال التوبة الجماعيّة، ولا توبة جماعيّة إلاّ بقبول اختبار هذا المجمع بكلّيّته واستيعابه وتحقيقه على مستوى الكنيسة المحلّيّة. فالدعوة إلى سينودس الأساقفة من أجل لبنان هو دعوة إلى كنيسة لبنان للدخول في زمن التجربة المجمعيّة، ولكن هذا لا يتمّ من دون الابتهال إلى الروح. وإعادة قراءة التاريخ الخاصّ بنا لا تتمّ من دون شروط معيّنة، منها إعمال الفكر النقديّ التحليليّ وتحديد ما نريده من خلال الحاجات الملحّة، وكذلك الأهداف والوسائل الموصلة إلى الغاية. وأهمّ ما تفترضه هذه القراءة هو تحديدُ المبادئ الأساسيّة التي لا بدّ أن تؤخذ بعين الاعتبار في جميع المجالات. وفي هذا الإطار لا بدّ أن يشارك في أعمال إعادة القراءة مَن هم، بين المؤمنين، أهل اختصاصٍ وعلمٍ وإدراك.

المحطّة الرابعة: التمييز: إنّه دعوة إلى إعمال الإرادة والحرّيّة والقدرة على القرار وعلى الاختيارات الصعبة أحيانًا. فما هي الضرورات؟ وما هي الحاجات الأشدّ إلحاحًا؟ هناك الكثير من المجالات التي ينبغي العمل فيها وتجديدها وتحديثها، فما هي الأولويّات؟ هل هي التنشئة، على سبيل المثال، تنشئة الإكليروس والعلمانيّين؟ أم هي إعادة النظر في البنى والمؤسّسات؟...

المحطّة الخامسة: الاقتراحات: إنّ المناقشات وإعادة القراءة التي سيقوم بها الجميع، ولا سيّما العلمانيّون ـ وهذا أمر جديد على الكنيسة ـ تكون مثمرة في الروح عندما تصل إلى مستوى الاقتراحات، وهذا يعني أنّ المسؤوليّة وصلت إلى شأن كبير وأنّ الشركة بين المؤمنين تعمّقت. فما تصبو إليه الجماعة المسيحيّة هو أن تكون المحبّة، لا في الأقوال فقط أو في العواطف، بل في الأعمال خاصّة. وهذه الاقتراحات، المنطلقة من الوثيقة/الدليل للتفكير والصلاة، هي التي ستكون المادّة الحيّة التي ستُطرح على «جمعيّة آباء السينودس الذي يرئسه أسقف روما».

وإنّ من شأن هذا الطريق المجمعيّ في محطّاته الخمس، وفي انفتاحه على باقي الكنائس المسيحيّة وعلى اللبنانيّين المسلمين، أن ينفذ إلى واقع روحيّ جديد وجذّابّ، يستفيد منه الجميع، إذ إنّ هذا الطريق هو قبل أيّ طريق آخر، طريق الارتداد إلى الله بقوّة الروح، بعيدًا عن الأنانيّة. إنّه دعوة موجّهة إلى كاثوليك لبنان، إلاّ أنّه نداء إلى كلّ القوى الذاتيّة اللبنانيّة لكي تتوجّه نحو بناء مجتمع جديد، تسوده العدالة والديموقراطيّة وقوّة الروح. فاتّحاد هذه القوى هو أساسيّ في مواجهة المستقبل وتأكيد حرّيّة الوطن أمام المعادلات الإقليميّة والدوليّة:

عودة الحياة إلى الجماعة المسيحيّة

إنّ الدعوة إلى هذا السينودس هي دعوة نبويّة تهدف إلى تحرير كنائسنا ومجتمعنا ودفعه ثانية على طريق الحياة والحرّيّة والإبداع. إنّها دعوة نبويّة لأنّها تحمل كلمة حياة ولأنّها، في الوقت نفسه، تدعونا إلى أن نكتشف في أعماق وجودنا وكياننا كلمة الحياة، فلا يجوز أن نجعل من هذه الدعوة مجرّد دعوة إلى اجتماع عاديّ أو إلى نوع من الجمعيّة الإداريّة التي لا لون لها ولا رائحة. إنّنا في هذه الدعوة إلى السينودس أمام التحدّي الكبير: أن نعيد الحياة إلى الجماعة المسيحيّة، وهذا فعل من أفعال القيامة، وبذلك يحصل الحدث المنتظر على نحو ما أراده البابا: «إنّي أحثّ (الجميع) على أن يباشروا عمليًّا وبكلّ سخاء التحضير لهذا الحدث التاريخيّ الذي هو جمعيّة السينودس...»[1].

(١) الرسالة المتلفزة.